إدغار موران مسار فيلسوف بهوية متعددة

صلاح محسن جبر
salahmohsen@utq.edu.iq
أ.د. كريم حسين الجاف
kmvkat@yahoo.com
كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

الملخص

يُعد هذا البحث أشبه بمدخل تعريفي للفيلسوف الفرنسي المعاصر إدغار موران ، من خلال رصد مساره الفكري وهويته المتعدده ، والتي هي بالضرورة لاتنفصل عن حياته المديدة والطويلة التي عاشها ، ملتزماً بقضاياه الإنسانية ومبادئه النبيلة ، كونه فيلسوفاً مسموع الكلمة في الوسط الفلسفي الفرنسي ، بغض النظر عن الإنقسامات السياسية الفرنسية ، إن موران شاهد على قرن بأكملة عاشه بكل صخبه وجنونه من الاحتلال النازي لفرنسا ، وانخراطه في مقاومته ، إلى سقوط الرايخ في الحرب العالمية الثانية ،

يعتمد فيلسوفنا على معرفة واسعة وشاسعة بمختلف الميادين التي يستفاد ويغتني منها في مشروعه العابر للتخصصات ، ولذلك فلسفته لا تعترف بالحدود الجغرافية الصارمة للتخصصات والميادين المعرفية المنعزلة مثل الجزر المتباعدة ، التي كلما زادت في نزعة التخصص جزئت الحقيقة واضاعتها ، ولكن بنفس الوقت ، وقد تبدو هنا مثل المفارقة هو ايضاً ضد النزعة الكلية الشاملة في المعرفة ، ولطالما تعرض موران لسوء فهم كبير ونقد شديد من قبل سدنة التخصصات المنغلقة على نفسها مثل القلاع الحصينة ، والهوة السحيقة بين العلوم الإنسانية والتخصصات العلمية ، التي تحولت إلى أشبه بقطيعة ، أضاعت على المعرفة الإنسانية فوائد جمة بأمكانها أن تعطي مقاربة أفضل وأجوبة أدق والتي تضاف إلى رصيد معرفتنا بالنوع البشري .

الكلمات المفتاحية : التعقيد ، التبسيط ، المركب ، الهوية ، السوسيولوجيا ، المنهج ، البراديغم ، الاختزال ، اللايقين ، النظام .

Edgar Morin: A Philosopher's Path with Multiple Identities

sst.Lect Salah Mohsen Jabr
Prof. Dr. Karim Hussein Al-Jaf
University of Thi Qar\College of Arts

Abstract

This research is more like an introductory introduction to the contemporary French philosopher Edgar Morin, by monitoring his intellectual path and multiple identity, which is necessarily inseparable from his long and long life that he lived, committed to his humanitarian issues and noble principles, as he is a philosopher whose word is heard in the French philosophical community, regardless of French political divisions. Morin is a witness to an entire century that he lived with all its tumult and madness from the Nazi occupation of France, and his involvement in its resistance, to the fall of the Reich in World War II,

Our philosopher relies on a broad and extensive knowledge of various fields that he benefits from and enriches in his transdisciplinary project, and therefore His philosophy does not recognize the strict geographical boundaries of specializations and isolated fields of knowledge like distant islands, which the more they specialize, the more the truth is fragmented and lost, but at the same time, and it may seem like a paradox here, he is also against the comprehensive, total tendency in knowledge, and Moran has always been subjected to great misunderstanding and severe criticism by the guardians of specializations closed in on themselves like impregnable castles, and the abyss between the humanities and scientific specializations, which has turned into something like a rupture, which has deprived human knowledge of great benefits that could provide a better approach and more accurate answers that are added to the balance of our knowledge of the human species.

Keywords: complexity, simplification, complex, identity, sociology, method, paradigm, reduction, uncertainty, system.

أولاً : موران مسار فكري بهوية متعددة

"في كتاب يضم مقالات بعنوان مغامرة الفلسفة الفرنسية ، يرى الفيلسوف آلان باديو بثقة كاملة أن الفلسفة الفرنسية ، بين صدور الكينونة والعدم لسارترعام ١٩٤٣ونشر كتاب ما لفلسفة؟

لدولوز وغاتاري عام ١٩٩١، تمتعت بعصرٍ ذهبي يشابه اليونان الكلاسيكية أو المانيا التنوير . وحظ باديو الكبير انه كان جزءاً من هذه المغامرة. مثل النبيذ والجبنة ، يجب على الفلسفة الفرنسية كما يقول ، أن تُعتبر جزءاً من مجد فرنسا . (أقول لسفرائنا ، أنتم تملكون فينا ، نحن الفلاسفة ، أعظم أنتاج للتصدير)"[١] . وفيلسوفنا إدغار موران ينتمي الى هذه المرحلة الذهبية من تاريخ الفلسفة الفرنسية ، وفعلاً لم يفت الرئيس الفرنسي نفسه ايمانويل ماكرون استثمار مناسبة عيد ميلاد موران المائة ، وتكريمه رسمياً على أعلى المستويات .

يُعد الفيلسوف وعالم الاجتماع إدغار موران واحد من أهم الفلاسفة الفرنسيين الأحياء ، بل وأخر المفكرين والفلاسفة الكبار في القرن الواحد والعشرين ، بل واحد الأخيرين بين أبناء الجيل الذي صنع للفكر الفرنسي مكانته خلال العقود الأخيرة ، وفي ٨ يوليو ٢٠٢٤ يكون قد مر مائة وثلاث عام على ميلاده ، الذي بدأ أسمه يلمع في الخمسينيات من القرن الماضي مع جون بول سارتر كمفكر ثوري معارض للحروب . وهو لليوم يدافع عن قضايا الإنسانية العادلة ، ويدعو للسلام ويشتبك مع قضايا العالم عن طريق حسابه في تويتر مغرداً عن حرب أوكرانيا وروسيا واحد كتبه الأخيره كان عنها "وماتثيره هذه الحرب من أزمة كبيرة ستؤدي إلى تفاقم جميع أزمات القرن الهائلة الأخرى التي تمر بها البشرية"[٢]

هناك مفهوم قديم منذ الفلسفة الاغريقية وهو "الهايدرا المعرفية" يشير الى الجسد المعرفي الذي يتشكل من فروع المعرفية المتداخلة والمتشابكة ومازلنا نشهد هذا التداخل والاشتباك المعرفي لدى بعض العلماء والفلاسفة في عصرنا هذا حيث تداخل الفكر والفلسفة والفيزياء والذكاء الاصطناعي وعلوم الدماغ والانثروبولوجيا والبيولوجيا وعلوم السيكولوجيا الادراكية وفيلسوفنا خير مثال على ذلك "ومما لاشك فيه ان موران اليوم هو اكثر المفكرين والفلاسفة المعاصرين إنتاجاً واشتباكاً مع قضايا عصره "كتب ، مقالات ، حوارات ، ندوات" ويشمل انتاجه دراسات وابحاث ومقاربات في السيسيولوجيا ، الانثروبولوجيا ، علم النفس ، البيئة ، التربية والتعليم ، الإعلام ، السياسة ، التاريخ ، الاقتصاد ، القانون ، بيولوجيا والمنظومات المعقدة ، فهو يقفز من الانثروبولوجيا والسوسيولوجيا إلى البيولوجيا والمنظومات الحية ، يعرج تارة على علم النفس المعرفي ، وعلى الفيزياء تارة ثانية ، ينتقل بين حقول الإنسانيات من آداب وتاريخ وفنون وحتى الأساطير ، فهو متعدد الاهتمامات ومتنوع المجالات في أبحاثه ، لم يترك مجالاً من مجالات المعرفة والحياة إلا وكان له إسهام فيه ، بما في ذلك مشكلات الحياة اليومية والعلاقات الإنسانية، لدرجة يمكن معها القول إنه يشكل خلاصة الفكر الفلسفي المعاصر برمته"[٣] .

دخل عالم السياسية من خلال منشورات الأقليات اليسارية ثم انتمى الى الحزب الشيوعي الفرنسي، وتابع دراسته في التاريخ والجغرافيا والقانون ، قبل ان يلتحق سنة ١٩٤٢ بالمقاومة الى جانب الحركات الشيوعية ضد النازية وفي أيام المقاومة في باريس حمل أسم غاستون بونسي ،

بحسب بطاقة هويته التي جعلها لبوابة العمارة ولمناسبات المراقبة البوليسية، وأسمه موران بالنسبة لرفاقه في المقاومة مستوحى من أحد شخصيات روايات بلزاك ، بينما ناحوم حين يراسل أباه و حين يلتقي بأحد اقاربه . طُرد من الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٤٨ بسبب معارضته للستالينية ، دون ان يمنعه ذلك من متابعة نشاطه الملتزم ضمن منظمات عدة "لجنة المثقفين من أجل السلام" و "لجنة المثقفين ضد حرب الجزائر" ونشر عمله الأول "السنة الصفر لألمانيا" في مجلة التحرير[٤] .

"وفي سنة ١٩٥٠ بعد ان فقد مورد رزقه بأعفاءه من منصبه كرئيس تحرير لدورية "الوطني المقاوم" الخاضعة للحزب الشيوعي ، أخبر السوسيولوجي جورج فرديدمان بوضعه فأقترح عليه ان ينظم الى المركز القومي للبحث العلمي ونصحه ان يعضد ترشيحه بتزكية يطلبها من قبل أساتذة مرموقين وكان كذلك الامر، أذ كتب كل من فلاديمير جانكليفيتش وموريس ميرلوبونتي وجورج فريدمان وبيار جورج شهادات لصالحه وصار باحثاً فيه وهو في الثلاثين من عمره"[٥] .

وعن ميوله الماركسية "أرى بوضوح انني كنت ماركسياً قبل ان أكون ماركسوياً، بما أني عدت ماركسياً من جديد قبل أن أصير ميتا– ماركسياً . لقد قرأت في صف الفلسفة القليل من كتابات ماركس خصوصاً "البيان الشيوعي" لكن صديقي جورج ديلبوى ، كان قد تأثر بأستاذه الماركسي موبلان ، وحثني على ان أعد ماركس عملاق الفكر"[٦]. وتحت هذا التأثير عمد موران الى تسجيل نفسه في الجامعة بقسم الفلسفة التي كانت تضم كل من السوسيولوجيا والسيكولوجيا، وفي الحقوق التي كانت تضم الاقتصاد، وفي التاريخ وفي العلوم السياسية . وصار هذا البرنامج الدراسي هو برنامج عمله الدائم ، الى جانب امتلاكه ثقافة أدبية من قراءته المبكرة للروايات والشعر والمقالات فواصل اغناءها الى جانب اكتسابه ثقافه في العلوم الإنسانية ليس فقط من خلال المؤلفين الذين كانوا يقدمون الدروس ، بل وكذلك من خلال المؤلفين غير المعروفين ايضاً في ذلك الوقت ، وهكذا اكتشف السوسيولوجيا الألمانية من ديلتاي الى ماكس فيبر . وكان فضوله النهم بلاحدود مهووساً بالمشكلات الإنسانية الأساسية التي تتجاهلها التخصصات المغلقة وكل ذلك سيقوده فيما بعد الى الفكر المعقد [٧] .

وعُرف موران في البدء ضمن الباحثين في عالم الاجتماع قبل ان ينتقل إلى الفلسفة "وكانت أبحاثه تتناول إهتمامات ثلاثة : يتصل بعضها بنا أسماه (ظاهرة الخيال الجمعي) ، وهي في نظره سمة من سمات العصر ، وينصب البعض الأخر على دراسة نمط جديد للثقافة يتصل بعالم الفضاء وينبثق عن تقنية البث اليومي عن طريق الراديو والتلفاز والسينما والصحافة ، ويهتم موران أخيراً بتقديم فكر سياسي ينبثق عن الواقع المعاصر"[٨]

حاز على أربع عشرة شهادة دكتوراه فخرية في العلوم الإنسانية من أربع عشرة جامعة عالمية ، وهو مدير البحث العلمي بالمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) بفرنسا ، وترجمت أعماله

الى لغات عالمية شتى ، وأفكاره منتشرة في كل مكان تقريباً وهناك مراكز تكوينية وبحثية في كل أقطار العالم تتبنى أفكاره على اكمل وجه ، ففي البرازيل هناك مركز يسمى الفكر المركب وحتى في المكسيك هناك جامعة تحمل اسمه [٩] .

أما بخصوص مساره الاكاديمي يقول "آثرت أن أبقى حراً ومستقلاً في المركز القومي للبحث العلمي "حيث جرى تقديري إيجابياً ، بناءً على كم أعمالي لا كيفها" بدلا من التشوف الى منصب في جامعة إقليمية حيث ألبث هنالك مهووساً بالرغبة في تعييني في باريس، حالماً بتقاعد أو وفاة شاغلي المناصب . ولم أتطلع مطلقاً الى أي منصب شرفي من قبيل الكوليج دو فرانس، ولم يساورني قط أي وهم بشأن الاكاديمية الفرنسية . لكنني قبلت بكل فرح شهادات الدكتوراه الفخرية التي منحت إياها في الخارج"[١٠] .

ويتحدث موران عن نفسه بوضوح في سيرته الذاتية "دروس قرن من الحياة" الصادر قبل عامين "من أنا؟ جوابي: أنا إنسان . هذا هو اسم ذاتي . لكنني أحمل صفات عديدة ، تتفاوت أهميتها بحسب الظروف ، انا فرنسي من أصل يهودي سفاردي: إيطالي وإسباني حيث تسود تارة هذه ، وتارة تلك، من الهويات المذكورة. كيف يسع المرء ان يحمل هويات عديدة ؟ الجواب: هذا في الواقع ما جرى عليه الحال. يحمل كل امريٍ هوية عائلته ، وهوية قريته او مدينت، وهوية منطقنه أو أثنيته، وهوية بلده ، واخيراً هوية قارته الاوسع نطاقاً . يحمل كل امريءٍ هوية معقدة، أعني واحدة ومتعددة في الوقت نفسه"[١١] . وفي حوار معه في نفس السياق يوضح أكثر "فيما يخص هويتي ، أقول مثلما قلتم ، أننا نملك هوية متعددة وربما لها مركز واحد فما حقيقة هويتي : فكما قلت ، انا أعتبر نفسي كائناً بميزتين : اولاً ، أساهم في المصير الحالي للنوع البشري ، أو البشرية ، ثانياً أشارك بكول وجودي في المغامرة الإنسانية ، بكل ماتملك من اللايقين والمغامرة والمصادفة . الباقي يبقى مجرد أوصاف ، فأنا فرنسي وأشعر بنفسي فرنسياً على وجه الكمال .. في نهاية المطاف أنا أوربي كذلك ، كل هذه الهويات تتناغم في ذاتي ن فعندما تقولون ماهويتي هي مبادئي ، أجيبكم : إن مبدئي الأول هو الإنتماء للنوع البشري ، وإلى مصير البشرية ومغامرتها ، ورغبتي في المساهمة في مصيرها بشكل يعود عليها بالنفع ، هذه هي هويتي بالضبط" [١٢]

ولد فيلسوفنا سنة ١٩٢١ وأسمه الحقيقي إدغار ناحوم لأب تاجر يهودي من أصل يوناني وأم إيطالية توفيت وهو في سن العاشرة ، وهو يعي هويته المتعددة على نحو متدرج ، كونه ينحدر من أبوان مهاجران يحملان هوية قومية . كانا يحملان هوية دينية إثنية – دينية سفاردية ، وهوية مدينةٍ ، هي سالونيكا واحة السلام في الإمبراطورية العثمانية منذ سنة ١٤٩٢ ، حيث معظم سكانها من اليهود ولم تطلهم تجاوزات الانكشارية ولا أضطهادات العثمانيين . وقد أتى بعضهم من توسكانا "ليفورنو" في بداية القرن التاسع عشر جالبين معهم الأفكار العلمانية والرأسمالية

والاشتراكية . لذلك ، كان سالمون بيرسي ، جدّي لأميّ ، مفكراً بلا مواربة ، ولقن أولاده أخلاقاً لا محل فيها للإله . ولم يكن أبي ، الشاب وقتئذٍ ، يحلم بغير باريس . وكانت برجوازية السفاردية في سالونيكا تتكلم بالفرنسية ، علاوة على القشتالية القديمة المعروفة عند أهلها باسم "جيديو" وعند غيرهم باسم الاسبانية اليهودية .[١٣]

تتداخل الهويات في أصول موران وثقافته فهو فرنسي بالمولد من جهة وإيطالي اسباني من جهة ابواه وأوربي الثقافة من جهة أخرى ، اما من جهة هويته اليهودية فقد أكتشف خلال مقامه في أسرائيل سنة ١٩٦٥ الكراهية المتبادلة بين اليهود والعرب . "لقد هجرت البحث عن جذوري في هذه الامة وان هيمنة أسرائيل على الشعب العربي في فلسطين قد ورطتني مرة أخرى بوصفي يهودياً ، ولكن من حيث كوني أحد أواخر المثقفين اليهود الحاملين للنزعة العالمية والمناهضين للاستعمار ، ومن ثم المعارضين لاستعمار فلسطين العربية . وقد جرّت عليّ المقالات التي كتبتها وقتئذٍ في صحيفة لوموند تهمة الخيانة"[١٤] ، وأبرزها تلك المقالة التي نشرها سنة ٢٠٠٢ بالتعاون مع سامي نيّر وانييل سالناف في جريدة الوموند تحت عنوان "أسرائيل – فلسطين : السرطان" قال فيها "تكون هذا السرطان الإسرائيلي – الفلسطيني متغذياً من القلق التاريخي لشعب أضطهد في الماضي ومن اللااستقرار الجغرافي من جهة ، ومن تعاسة شعب مضطهَد في حاضره ومحروم من الحق السياسي من جهة أخرى" منتقداً الرؤية الإسرائيلية أحادية الجانب، وان وعي إسرائيل انها ضحية هو الذي يتيح لها ان تصير قامعة للشعب الفلسطيني . أي كيف تدير ملف الضحايا بعقلية محاكم التفتيش، وكلمة المحرقة العلامة الفارقة للمصير اليهودي كضحية هي التي تجعله يتفه المحارق الأخرى "إبادات الغولاغ والغجر والسود المتعبدين والهنود الحمر" ضحايا الغيتو يطبقون هذا الغيتو على الفلسطنيين اليهود الذين اذلوا واحتقروا يمارسون نفس الشيء ضد الفلسطينيين ، ضحايا النظام الذي لا يرحم يفرض على الفلسطينيين نظامهم الذي لا يرحم ، ثارت المنظمات الصهيونة في فرنسا ورفعت قضية تشهير عرقي على الكتاب الثلاثة ، والمفارقة انهم ثلاثتهم من اليهود أدانتهم محكمة الاستئناف في فرساي ، ولكن محكمة النقض رفضت الحكم واعتبرت المقال جزء من حرية التعبير هو من دعائم النظام الديمقراطي[١٥]. "لم أعترض قط على حق دولة إسرائيل في الوجود، ولم تغبْ عن وعيي المخاطرة التاريخية التي احدقت بالأمة الأسرائيلية او يمكن ان تحدق بها في المستقبل . وفي المقابل ، أنتقدت القمع الذي يمارسه الجيش أو البوليس الاسرائيليان في حق الفلسطينيين ، واعترفت بحق هؤلاء في إقامة دولة قومية طبقاً لقرارات الأمم المتحدة واتفاقيات أوسلو الميتّة . ولقد كانت امنيتي الحقة هي أمنية مارتن بوبر نفسها ، اعني امة مشتركة بين اليهود والعرب"[١٦].

يعتقد موران انه يشرف الهوية اليهودية بعمله هذا ذو التوجه العالمي ، اكثر من أولئك الذين يشتمون الناس ويفترون عليهم باسم هوية مغلقة وحصرية "إنني أعترف بمحتدي اليهودي ، وإذ أؤكد أنني أنتمي إلى الشعب الملعون ، لا إلى الشعب المختار ، أعرن نفسي بأنني ما – بعد – مَرَّاني أعني أبن مونتين "ذي الأصل اليهودي" وسبينوزا الذي حرمه الكنيس"[١٧] . ثقافة موران الإنسانية وهويته المتعددة وإحساسه العالي بمشاكل ومستقبل البشرية ، وسعة أفقه ، تعطيه سمة المواطن الكوني والعالمي ، إلى درجة أنه يُماهي بين الأرض كملك للجميع وبين وطنه الذي ينتمي إليه ، كما هو أحد عناوين كتبه (الأرض–الوطن) "أنا كل بالنسبة إلى ذاتي ، وفي الوقت نفسه ، لست شيئاً تقريباً بالنسبة إلى الكل .أنا انسان واحدٌ من جملة ثمانية مليارات إنسان ، أنا فرد فريد وعادي و مختلفٌ عن الآخرين وشبيه بيهم في آن معاً . انا نتاج أحداث ولقاءات قليلة الإحتمال ، عشوائية مترددة ، مباغته ، وغير مرتبقة . وفي الوقت نفسه ، انا هو ذاتي ، فردٌ ملموس ومزود بآلةٍ فائقة ، وإيكو – ذاتية التنظيم هي جسدي ، آلةٍ غير تافهة ، قادرة على الاستجابة لما هو غير مرتقب وعلى خلق ما لا يرتقب . يمنح الدماغ لكل فرد العقل والنفس ، وهما غير مرئيين لعالم الاعصاب الذي يحلل الدماغ لكل فرد العقل والنفس ، لكنهما ينشآن في كل أنسان خلال علاقته بالغير وبالعالم "[١٨] . يلخص هذا النص الهوية المعقدة والمتعددة للكائن البشري بوصفه فرد وجزء من كل ينتمي لمجتمعة والذي هو مدار بحثنا الذي سوف نأتي على تفصيله وبيانه.

ثانياً : تفكير متعدد الأبعاد

لأجل فهم مشروع موران وجماع فكره الفلسفي ، يتمثل في كتابه "المنهج"وهو المشروع الذي اخذ منه ما ينيف على الخمس وثلاثون سنة ، بأجزائه الست ، كاتباً ومنقحاً ومعدلاً على مسودته ، كما يوضح لنا سيرة هذا المشروع في كتابه "مغامرة المنهج" بعوائقه وصعوباته ومناخه العام ومزاجه لحظة كتابته ، حيث يؤكد لنا بأكثر من موضع بأن كُتبه لا تنفصل عن حياته ، وبأن حياته لا تنفصل عن كتبه بل يقتات أحدهما على الآخر "من أنا ؟ لا تنفصل كتاباتي عن حياتي أبداً. أرى ان حياتي مرهونة بالكتاب والكتاب مرهون بالحياة . أنتج نفسي في كتبي وكتبي تُنتجني . وعملي الفكري منذور للحياة وحياتي منذورة لعملي الفكري" [١٩] .

يعتمد فيلسوفنا على معرفة واسعة وشاسعة بمختلف الميادين التي يستفاد ويغتني منها في مشروعه العابر للتخصصات ، ولذلك فلسفته لا تعترف بالحدود الجغرافية الصارمة للتخصصات والميادين المعرفية المنعزلة مثل الجزر المتباعدة ، التي كلما زادت في نزعة التخصص جزئت الحقيقة واضاعتها ، ولكن بنفس الوقت ، وقد تبدو هنا مثل المفارقة هو ايضاً ضد النزعة الكلية الشاملة في المعرفة ، ويستشهد بقول أدورنو "الكلية هي اللا حقيقة" واصفاً إياه بالفيلسوف الكبير في مدرسة فرانكفورت ، على الرغم من أنه نهل من الفكر الكليّ على يد هيجل وماركس ، انتهى

إلى أن الحقيقة الشاملة خطأ شامل أيضاً ، وهذا ما يخشاه موران من أنواع سوء الفهم حيث يؤكد "أنه كان يُنظر إلي كفكر يرغب في أن يكون تركيبياً ومنظماً وشمولياً ودمجياً وتاكيدياً . يسود شعور بأنني شخص قام ببناء منظومة يخرجها من جيبه قائلاً :(هذا ما يجب تقديسه وعليكم أن تحرقوا ألواح القانون القديمة" . بذلك ألصقوا بي ، ولمرات عديدة ، تصوراً يقول بالتعقيد الكامل مقابل التبسيط المطلق . والحال ان فكرة التعقيد ذاتها تحمل في ذاتها استحالة التوحيد ، واستحالة الاكتمال ، كما تحمل جزءاً من اللايقين وجزءً مما لا يقبل الحسم والإقرار المباشر بما لا يمكن قوله . وهذا لا يعني ، مع ذلك ، ان التعقيد الذي أتحدث عنه يختلط بالنزعة النسبية المطلقة" [٢٠] .

إذ ليس الغرض من التفكير المركب القضاء على اللايقين ، بل التعرف عليه والاعتراف به وتجنب الاعتقاد في وجود حقيقة كليّة مطلقة ، ومن يعتقد انه يمسك بالكلّيّ هو مخطيء [٢١] . "إن مشروعي هذا بمثابة دمج تأملي لمختلف العلوم المتصلة بالكائن البشري . ولا يتعلق الأمر بإضافة أحدهما إلى الأخر بل ربط بعضها ببعض ، وتفصيلها وتأويلها . وليس في نية هذا المشروع حصر معرفة الإنسان بالعلوم فهو يعتبر الشعر والفنون ، حرفياً ليست بمثابة وسائل تعبير فني فحسب ، بل وسائل للمعرفة . ويسعى إلى الأخذ بالفكر الفلسفي الذي يُعنى بالإنسان، ولكن عبر تغذيته بالمكتسب العلمي وهذا ما أهمله هايدغر . ودمج الفلسفة والعلم معاً يوجب تناولهما على نحو مختلف" [٢٢]وفي الرد على الإنتقادات التي توجه لفكرة التعقيد يوضح موران "إن أولئك الذين لم يقرؤُوني ويحكمون عليّ من خلال أقاويل الأوساط الضيقة ينسبون إليّ فكرة غريبة مفادها أنني قد أقترح دواءً سحرياً يطلق عليه التعقيد ، ويكون ذلك بمثابة علاج لكل أوجاع الفكر ، بينما ، على العكس من ذلك ، يمثل التعقيد بالنسبة إليّ تحدياً كنت أقترح دائماً رفعه" [٢٣] .

وحتى كلمة منهج التي هي عنوان مشروعه الرئيس ليست كما نفهم منها هذا المعنى المتداول "يجب ان نذكر هنا بأن كلمة "منهج" لا تعني بتاتاً المنهجية؟ ذلك ان المنهجيات هي أدّلاء قبْليون يبرمجون الأبحاث بينما المنهج الذي يستخلص أثناء مسيرتنا سيكون عوناً على الاستراتيجية (التي تشمل مقاطع مبرمجة مفيدة فعلاً وهي مقاطع "منهجية" ولكنها تتضمن بالضرورة جانباً من الاكتشاف والتجديد)" [٢٤] .

ويؤكد أنه "فرضت كلمة منهج نفسها على فكري فجأة بينما لم أكن أفكر في استخدام أي منهجية. وبدا لي معناها واضحاً ، وفهمت منه أن المنهج سيكون النتيجة النهائية للطريق الذي سأقطعه ، وليس مبدأً أول أطبقه في عملي (فكما قال نيتشة المناهج تأتي في النهاية) فكلمة **methodos** اليونانية تجمع بين كلمة **metis** (الحيلة والخدعة) ، و **ados** (الطريق) وتعني (البحث عن الطريق) ، وبينت لي هذه الكلمة أنه يتعين السير طويلاً وبصعوبة للوصول

إلى تصور لصيغ تفكير يكون بوسعها معالجة التعقيدات ." [٢٥] ، أي انه لايستخدم منهجاً بل ينطلق بحثاً عن المنهج ، والمفارقة هنا أن يكون مشروعه الذي يسمى المنهج كما هو متعارف عليه كلاسيكياً ، إن هو ثورة على المفهوم نفسه ، وكأنه يقول اللامنهج هو المنهج ، أي السير دون خطاطة مسبقة "يجب أن نقبل المشي دون طريق ، وأن نشق الطريق ونحن نمشي ، لايمكن أن يتشكل المنهج إلا أثناء البحث ، لايمكن أن يُنحت ويصاغ إلابعدما وعندما يصبح المصطلح مرة أخرى نقطة بداية جديدة ، مزودة هذه المرة بالمنهج ، إن العودة إلى البداية ليست حلقة مفرغة إذا كانت الرحلة تعني ، كما تعني كلمة "**trip**" اليوم ، التجربة ، التي يعود منها المرء متغيراً ، لذلك ربما كان بإمكاننا تَعَلُّم تَعَلُّم التَّعلُّم من خلال التَّعلُّم . عندئذٍ بالإمكان أن تتحول الدائرة إلى حلقة لولوبية حيث تكون العودة إلى البداية هي بالضبط مايُبعِد عن البداية"[٢٦].

يتنزل مشروع موران بنقد برديغم ومنظومة التبسيط المهيمنة على الفكر الغربي وبكافة مستوياته علمياً ومنطقياً وابستمولوجياً وسياسياً ، وذلك بتكلسها داخل مقولات النظام والهوية والثبات والحتمية والوضوح ، واستبعادها أسئلة التعقيد والفوضى والإختلال واللايقين ، وحبس الفكر داخل مونادات مغلقة بلا نوافذ ، وداخل مقولات متعالية وشمولية ، تحت آلية ترقية واصطفاء المقولات الأساسية للتعقل "وهكذا تكون مقولة النظام في التصورات الحتمية ، ومقولة المادة في التصورات المادية ، ومقولة العقل في التصورات العقلية ، ومقولة البنية في التصورات البنيوية ... الخ ، تكون المفاهيم الأساسية التي تصطفي / وتُصطفى ، والتي تُقصي أو تُخضع المفاهيم المتعارضة معها وهي (الفوضى والمصادفة والعقل والمادة والحدث) وهكذا يكون المستوى البراديغمي هو مستوى مبدأ اصطفاء / أو إهمال الأفكار التي ستكون إما واردة في الخطاب أو النظرية وإما مستبعدة ومهملة" [٢٧] وهذا الفكر المغلق الذي لا يقول بالتعدد له أثار مدمرة على كافة المستويات ، وهنا تبرز خطورة وصعوبة رهان الفكر المعقد . "وأجاب موران عن سؤال حول تعدد تخصصاته وما إذا كان هذا التعدد يؤدي إلى التشتت فقال: (إنني أجد لزاماً علي أن أكافح ضد التشتت ، غير أني أصر على تعدد أهتماماتي وخبراتي .. وإذا كان عليّ أن أعرف أهتماماتي فإني في الحقيقة أقوم على جمع المشتت والمتبعثر ، وأود لو أن هناك ثمرة للجمع بين علم الملموس وبين المجرد ، وبين علوم الاجتماع وعلوم الحياة مثلاً . كما أود ألا يكون في ذلك مجرد إثراء للمعرفة ، بل لمبدأ المعرفة ذاته ، أقصد المنهج . إن كتابي عن "المنهج" إنما هو ثمرة لهذا الإتجاه)" [٢٨] إذاً هو فكر يركز على تبيّان تعقيد العالم والإنسان ، ويحتاج منهج يلبي هذا الطموح "وهو التصور الذي قاده إلى إعادة النظر في مفاهيم علمية وفلسفية من قبيل النظام

واللانظام ، والنسق ، والمعلومة ، والكائن الحي ، والمعرفة ، واللغة ، والمنطق ، والبردايغم والهوية، والقيمة الأخلاقية .. معتمداً ابستمولوجيا جديدة هي أبستمولوجيا التعقيد ، أو لنقل براديغماً معرفياً جديداً يتكون من نظرية الإعلام ونظرية الانساق" [٢٩] وهذا التصور هو في العمق دعوة عاجلة إلى إصلاح التفكير ، طالما هو يُسائل الإدوات المعرفية التي بها نفكر ونحكم ، وهي مهمة صعبة وشاقة ، بظني ما يقوم به موران لوحده يعادل مؤسسة كاملة بطوابق لينتج فكراً ومشروعاً مثل هذا شديد التعقيد .

بشكل عام تهدف موسوعة المنهج إلى إصلاح المعرفة حتى تتمكن من مواجهة تعقيدات العالم والحياة والمجتمعات والعلاقات الإنسانية . والواقع بطبيعة الحال أن طراز المعرفة المسيطر يتأسس ليس على التخصص في ميدان معين فقط مما أدى إلى قفزات علمية عظيمة ، بل على التفريق بين الميادين المعرفية وتشتيت المعارف وعدم القدرة على الربط بين المعارف القطاعية من أجل معالجة المشاكل العامة والأساسية التي تستوجب التواصل بين المعارف [٣٠] .

يشبه موران تفرع مشروعه بشجرة الأَثْأَب "وهي شجرة تتحول أفرعها وأغصانها حين تقع على الأرض إلى جذور جديدة التي تحول الأفرع إلى جذور جديدة . وقد اخترت هذه الشجرة لتكون رمزاً لهذه الحلقة المتكررة المرتبطة بكثير من العمليات المعقدة التي تصير من خلالها المنتجات إلى منتج يقوم بدوره بإنتاج ماكان سبباً في إنتاجه هو ذاته . تشبه شجرة الأَثْأَب كتاب (المنهج) الذي صار له جذور أنتجت أشجاراً جديدة متميزة لكنها غير منفصلة عن الجذع الأساسي الذي كان سبباً في وجوده . ومثلت الكتب التي أقدمت على تأليفها بشكل مواز مع (المنهج) هي ذاتها تدريباً على الفكر المعقد الذي تأثر بـ(المنهج) وارتبط به ثم قام بالمثل بالتأثير فيه والارتباط به"[٣١] ، حيث أن المشكلة الأساسية والجوهرية هي مشكلة معرفية ، وهي الثقة المطلقة بكل ما توصل إليه العلم والعقل البشري ، وذلك ببحثه عن أجوبه سهلة ومريحه بأستبعاده كل أسئلة الفوضى والغموض والإختلال والتناقض والتعدد في صميم تجربتنا الكونية ، مبدأ الإختزال هو مبدأ هروب من مجهول هذه الأسئلة ، حتى وان لم نستطع الأجوبة عنها بحسب موران فأننا على الأقل نكون جاهلين واعين بجهلنا على أن نكون جاهلين واننا نجهل بشكل مضاعف جهلنا "إننا نحيا تحت سلطان مباديء الفصل والاختزال والتجريد التي تشكل ما أسميه "منظومة التبسيط" صاغ ديكارت هذه المنظومة المسيطرة على الغرب عن طريق الفصل بين الذات المفكرة والشيء الممدود أي الفصل بين الفلسفة والعلم ، وكذا عن طريق وضع الأفكار (الواضحة والمتميزة) كمبدأ للحقيقة ، أي الفكر الفاصل نفسه ولاشك أن هذه المنظومة التي تراقب مغامرة الفكر الغربي من القرن السابع عشر سمحت بحدوث تقدم كبير على صعيد

المعرفة العلمية والفكر الفلسفي ، ولم تبدأ مخلفاتها الضارة الأخيرة في الانكشاف إلا في القرن العشرين" [٣٢] .

ان هذا القطع والفصل بين المعرفة العلمية والفكر الفلسفي سيحرم العلم في نهاية المطاف من التفكير ومعرفة نفسه ، إلى جانب فصل العلوم والحقول العلمية الكبيرة بعضها عن بعض بشكل جذري وحاسم ، وعليه فأن الطريقة الوحيدة لتلافي هذا القطع والانفصال هو اللجوء إلى تبسيط أخر اختزال المركب في البسيط ، اختزال البيولوجي في الفيزيائي والإنساني في البيولوجي ، ذلك أن النزعات التخصصية قد قامت بتقطيع النسيج المركب للوقائع بشكل فائق ، واوهمتنا بأن هذا التقطيع الاعتباطي الذي أجري على الواقع هو الواقع نفسه [٣٣] .

الى جانب ذلك ان المعرفة العلمية الكلاسيكية قد أسست كما يرى "صرامتها وإجرائيتها على القياس والحساب ، لكن بدأت الريضَنَه والصَّوْرنَةَ تنفصل شيئاً فشيئاً عن الكائنات والموجودات، بحيث لم تعد تعتبر كوقائع سوى الصيغ والمعادلات التي تحطم الكيانات المكممة . أخيراً ، أن الفكر التبسيطي غير قادر على تمثل الوصل بين الواحد والمتعدد (الوحدة المتعدة) فإما أنه يوحد بشكل مجرد خلال إلغاء التنوع ، او على العكس من ذلك يضع العناصر المتنوعة جنباً إلى جنب من دون تمثل الوحدة"[٣٤]

إذاً لابد من ضرورة الفكر المعقد ، ويعود موران ببداية تعرّفه على مصطلح التعقيد إلى العالم الإنكليزي ويليام روس آشبي (١٩٠٣-١٩٧٢) حيث يقول "ومنحني .. أول تعريف لمصطلح التعقيد complaxite الذي يعبر عن درجة من التنوع في نسق ما . وبرهن على أمكانية التنوع الحتمي على أن ضبط نسق ما يتطلب أمكانية للتحكم مساوية في درجة تعقيدها مع النسق الذي الذي يتعامل معه أو تفوقه . ومن ثم سيحدث (تحكم عكسي) لو أزداد تنوع درجة تعقيد (المتحكم فيه) أو فاقت تنوع وتعقيد (المتحكم)" [٣٥] ، ولو سألنا "ما هو التعقيد؟ من أول وهلة ، نقول إن التعقيد هو نسيج " : complexusما نسيج ككل" من المكونات المتنافرة المجمعة بشكل يتعذر معها التفريق بينها ، إنه يطرح مفارقة الواحد والمتعدد . ثانياً ، بالفعل أن التعقيد هو نسيج من الأحداث والأفعال والتفاعلات والارتدادات والتحديدات والمصادفات التي تشكل عالمنا الظاهراتي. لكن في هذه الحالة يحمل التعقيد بشكل مقلق سمات الخليط وغير القابل للفصل والاختلال والغموض واللايقين .. من ثمة تظهر ضرورة تنظيم المعرفة للظواهر عبر كبت الاختلال وإزاحة الغموض والتوضيح والتمييز والتركيب .. لكن مثل هاته العمليات الضرورية للعقل قد تصيب بالعمى إذا ما أقصت العناصر الأخرى لما نسج ككل" [٣٦] ، ويوضح في موضع أخر"أما ما

أسميه بالفكر المعقد أو المركب فهو ذاك الذي يريد تجاوز الغموض والاضطراب وصعوبة التفكير معتمداً في ذلك على فكر مُنّظمٍ قادرٍ على الفصل والربط" [٣٧] .

المصادر والمراجع :

(١) ستيورات جيفريز آلان باديو: حياةٌ في الكتابة، ضمن كتاب كتاب، آلان باديو، سلافوي جيجك، الفلسفة في الحاضر، تحرير: بيتر إنغلمان، ترجمة وتقديم: يزن الحاج، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٣، ص١٣٠.

(٢) إدغار موران من حرب إلى أخرى من حرب ١٩٤٠ إلى حرب أوكرانيا، ترجمة : علي يوسف أسعد، صفحة ٧، السعودية، ط١، ٢٠٢٣، ص٧٦.

(٣) إدغار موران : المفكر المتعدد وفيلسوف الراهن، مجموعة مؤلفين، إشراف وتقديم داود خليفة، دار الأيام، عمّان، الأردن، د . ط، ٢٠٢٢، ص٧، (التقديم) .

(٤) ينظر : جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٦، ص٦٤٥.

(٥) إدغار موران، دروس قرن من الحياة، ترجمة : خليد كدري، صفحة ٧، السعودية، ط١، ٢٠٢٢، ص٣٦-٣٧ .

(٦) إدغار موران، مع ماركس وضد ماركس، ترجمة : محمد نعيم، صفحة ٧، السعودية، ط١، ٢٠٢٢، ص١٣ .

(٧) ينظر: إدغار موران، المصدر نفسه، ص١٤-١٥ .

(٨) عبد الوهاب جعفر، مقالات في الفكر الفلسفي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د، ط، ١٩٨٨، ص٢١٩.

(٩) ينظر: إدغار موران، طارق رمضان، خطورة الأفكار، تساؤلات حول كبرى القضايا المعاصرة، حوار يديره كلود هنري ديبور، ترجمة : محمد صلاح شياظمي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د . ط، ٢٠١٦، ص١٨٦ .

(١٠) إدغار موران، دروس قرن من الحياة، ترجمة : خليد كدري، ص٢٧ .

(١١) إدغار موران، المصدر نفسه، ص١١ .

(١٢) إدغار موران، طارق رمضان، خطورة الأفكار، ص٩٦.

(١٣) ينظر: إدغار موران، دروس قرن من الحياة، ص١٢ .

(١٤) إدغار موران، المصدر نفسه، ص١٦.

(١٥) ينظر : إدغار موران، المنهج، معرفة المعرفة : أنثروبولوجيا المعرفة ج٣، ترجمة : جمال شحيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٢، ص١٣-١٤ (مقدمة المترجم) .

(١٦) إدغار موران : دروس قرن من الحياة، ص١٦ .

(١٧) إدغار موران : المصدر نفسه، ص١٧ .

(١٨) إدغار موران : دروس قرن من الحياة، ص٢٨ .

(١٩) إدغار موران، مغامرة المنهج، ترجمة : إيمن عبد الهادي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٢٢، ص٨٥ .

(٢٠) إدغار موران، الفكر والمستقبل مدخل الى الفكر المركب، ترجمة : أحمد القصوار ومنير الحجوجي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٤، ص٩٦.

(٢١) ينظر: إدغار موران، التفكير الشامل الإنسان وكونه، ترجمة : المنتصر الحملي، صفحة ٧، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٢٢، ص١٣٦.

(٢٢) إدغار موران : النهج إنسانية الإنسانية الهوية البشرية، ترجمة : هناء صبحي، كلمة، أبو ظبي، الأمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٩، ص٢٣ –٢٤.

(٢٣) إدغار موران : العقل المحكم، إعادة التفكير في الإصلاح وإصلاح الفكر، ترجمة : المنصف وناس، معهد تونس للترجمة، تونس، ط١، ٢٠٢٠، ص٩ .

(٢٤) إدغار موران، المنهج معرفة المعرفة : أنثروبولوجيا المعرفة، ج٣، ترجمة : جمال شحيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٢، ص٤٦ .

(٢٥) إدغار موران، مغامرة المنهج، ص٤٠ .

(٢٦) إدغار موران، المنهج، طبيعة الطبيعة، ج١، ترجمة : يوسيف تيبس، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٢٣، ص٣٤.

(٢٧) إدغار موران، المنهج الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها، ج٤، ترجمة : جمال شحيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٢، ص٣١٧.

(٢٨) عبد الوهاب جعفر، مقالات في الفكر الفلسفي المعاصر، ص٢٢٥.

(٢٩) إدغار موران : نحو براديغم جديد، ترجمة وتقديم : يوسف تيبس، مجلة رؤى تربوية، العدد ٢٩، المملكة المتحدة، مؤسسة عبد المحسن القطان، ص١١٩ (مقدمة المترجم) .

(٣٠) ينظر: إدغار موران، المنهج، ج ٣ / ٤، معرفة المعرفة، الأفكار، ترجمة : يوسف تيبس، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠١٣، ص٧، (مقدمة المؤلف للترجمة العربية) .

(٣١) إدغار موران : مغامرة المنهج، ص٤٧ .

(٣٢) إدغار موران : الفكر والمستقبل مدخل إلى الفكر المركب، ص١٥ .

(٣٣) ينظر: إدغار موران، المصدر نفسه، ص١٥ .

(٣٤) إدغار موران : المصدر نفسه، ص١٦ .

(٣٥) إدغار موران : مغامرة المنهج، ص٣٢ .

([٣٦]) إدغار موران : الفكر والمستقبل مدخل الى الفكر المركب، ص١٧ .

([٣٧]) إدغار موران : تعليم الحياة بيان لتغيير التربية، ترجمة : الطاهر بين يحي، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٦، ص١٠٩ .